

«آخر القياصرة» مسلسل جديد من التاريخ الروسي

سقوط نظام القياصرة وصعود النظام السوفيتي



كان القيصر يحكم روسيا بتقاليد القرن الثامن عشر



سيطر راسبوتين الرهيب على عقلية ألكسندرا

على والده، يحاكمه ويوجه له اللوم على إضاعة الإمبراطورية، بل وكيف أنه تنازل عن حق الكسيس نفسه في ولاية العهد دون أن يستمع لرائه، كما لو كان الابن الصغير المريض قد أدرك فجأة كل مسالب الحكم وأصبح القاضي الذي يحاكم والده ويحكم عليه، وهي فكرة بعيدة عن المصادقة والمنطق بالطبع.

كان الفيلم أفضل من المسلسل في ما يتعلق بعصر التمثيل، ففيه يقوم بدور نيقولا الممثل مايكل جاستون، وبدور القيصرة جانيت سوزمان، كما يقوم نوم بيكر بدور راسبوتين والعلاق لورنس أوليفيه بدور رجل الاقتصاد الروسي سيرجي ويت الذي سيصل إلى منصب رئيس الحكومة لكنه سيضطر إلى الاستقالة في 1905 بسبب مقاومة القيصر لمشروعاته الإصلاحية.

ويحتل دور راسبوتين مساحة كبيرة في كلا العنصرين. لكن شخصية راسبوتين تبدو فيهما، كاريكاتورية، سطحية أحادية، بينما كان راسبوتين حسب كتب التاريخ الروسي، شخصية أكثر تعقيداً، وكان يمتلك من الكاريزما ما يجعله يستطيع إخضاع الكثير من بنات ونساء الطبقة الأرستقراطية في برانته ثم السيطرة تماماً على عقل الكسندرا.

أما أفضل عمل سينمائي أظهر شخصية راسبوتين حسب ما أعرف، فهو الفيلم الروسي البديع «احتضار» Agoniya الذي أخرجه إليم كليوف عام 1975 ومنعته السلطات السوفيتية من العرض إلى أن سمحت بعرضه في زمن البريستوريكا عام 1985، وهو من ناحية الأداء التمثيلي عموماً، نموذج مثالي على عظمة المسرح الروسي الذي خرج منه الممثل الفذ الكسي بترينكو الذي قام بدور راسبوتين، ولعله أيضاً أفضل ما شاهدت من أفلام عن سقوط النظام القيصري القديم في روسيا، لكنهم منعوه لأنه لم يكن عملاً دعائياً، وتميز بالجرأة الشديدة في تصوير المشاهد الحسية، ولم يهتم كثيراً بقيادة الثورة البلشفية، وكان هذا كافياً بالطبع، لكن «الاشياء تتغير» وهو عنوان فيلم آخر بديع!

وتخلي القيصر عن معاونيه المخلصين، يؤدي إلى فقدانه القدرة على التعامل مع المواقف السياسية والاجتماعية المستجدة، حتى أن رئيس وزراءه ستولين الذي كان يميل للإصلاح، يقول له إن روسيا تغيرت كما تغير الشعب أيضاً، «ولكنك تحكم روسيا في القرن العشرين بأساليب القرن الثامن عشر».

يمر المسلسل على الحرب مع اليابان التي ستهزم فيها روسيا، بعد أن شنها القيصر لمجرد استعراض القوة والرغبة في الاستيلاء على المزيد من الأراضي وتوسيع الإمبراطورية جرياً على عهد أسلافه، ثم نصل إلى الحرب العالمية الأولى وتدهور الأوضاع في الجبهة وفي عموم البلاد، وعجز الملكة الأم عن دفع ابنها نيقولا إلى طرد راسبوتين وتحجيم نفوذ الكسندرا، ثم كيف تصبح الكسندرا مكروهة من الشعب الذي ينظر إليها باعتبارها جاسوسة ألمانية، كما تنتشر المنشورات في شوارع موسكو وبروغرا، تصورها كعشيقة لراسبوتين، لكن من عيوب المسلسل الواضحة أنه يركز على استعراض الأحداث من زاوية واحدة فقط هي زاوية القيصر وعائلته، دون أن يهتم كثيراً بالجانب الآخر، أي جانب الحركات والتنظيمات الثورية التي كانت تتحرك منذ سنوات، في روسيا وفي الخارج، واكتفى بإظهار شخصية لينين في النهاية من خلال الجرائد السينمائية التسجيلية.

يمزج صناع المسلسل بين التسجيلي والدرامي، من خلال استخدام الكثير من الصور الفوتوغرافية بما في ذلك الكثير من الصور الخاصة بعائلة القيصر، والشرائط السينمائية المصورة

يعاني المسلسل أيضاً من التناقض الكبير بين تصوير عجز القيصر وقسوته وتمسكه بسياسة البطش والقمع واعتباره بالتالي المسؤول الأول عن سقوط النظام، وفي الوقت نفسه التعاطف الكبير معه وتصويره ضحية وشخصية تراجيديية هو وزوجته، والتوقف طويلاً أمام نفيه مع أسرته، أولاً إلى سيبيريا، ثم بعد نشوب الحرب الأهلية (بين البيض والحمراء) يتم نقل الجميع إلى يكاترينبيرغ في منطقة الأورال، حيث يتعرضون لمعاملة خسنة من جانب الحراس البلشفيين، إلى أن

ظل لفترة متردداً يخشى تحمل المسؤولية بسبب عدم خبرته. وكان نيقولا على علاقة حب مع أميرة ألمانية سرعان ما يتزوجها في حفل كبير ليصبح حسب ما يقوله المعلق: أول زواج ملكي في أوروبا يقوم على الحب، وأول ملك وملكة يتشاركان «فراشاً واحداً». وبمناسبة هذا الزواج الأسطوري تُوزع الهدايا والماكولات على فقراء الفلاحين والعمال الذين سيجتمعون في الساحات العامة في كبريات المدن الروسية، وبعد نفاذ الهدايا تقع اضطرابات وتتدخل الشرطة لفض الحشود مما يؤدي إلى سقوط أعداد كبيرة من القتلى والجرحى، أي أن القيصر يفتتح عهده بإراقة الدماء!

مع تطور الأحداث يرفض القيصر التخلي عن أسلوبه الموروث في الحكم الأوتوقراطي الفردي كما يرفض إجراء إصلاحات حقيقية على نظام الحكم بحيث يتيح الفرصة للمشاركة الشعبية من خلال إقامة برلمان وانتخابات. وعندما سيقتل سيكون الوقت قد تأخر كثيراً وانتشرت على نطاق واسع حركات الاحتجاج والغضب والعنف، إلى أن يجد القيصر نفسه مرغماً على التنازل عن عرشه بعد أن يتفكك الجيش وتنضم قطاعات كبيرة منه إلى الثوار، لكنه لا يتنازل لصالح ابنه بل للجمعية الوطنية (الدوما) لتبقى البلاد من دون قيصر للمرة الأولى منذ أكثر من 300 سنة إلى أن يستولي البلاشفة بقيادة لينين على السلطة بعد أشهر، في خريف 1917.

يركز المسلسل على ثلاثة جوانب في حياة القيصر وأسرته: أولاً إنجابه طفلاً (بعد أربعة بنات) ولكن الطفل الكسيس مصاب بمرض الهيموفيليا أي عدم تجلط الدم بسهولة ويقول الأطباء أنه لن يعيش طويلاً. وثانياً علاقة الكسندرا بالكاهن الفاسد المنحرف راسبوتين الرهيب الذي تلجأ إليه لإنقاذ ابنها من الموت، فيستولي تماماً على عقلها وقلبها خاصة وأنها من البداية متديبة يقوم تدبيرها على قبول الخرافات مما جعلها تؤمن بأن راسبوتين قديس وأنه يمكنه شفاء المرضى، أما راسبوتين فظل يخدمها بالصلوات والدعاء وما إلى ذلك، وبعد دخول روسيا الحرب العالمية الأولى ضد ألمانيا والإمبراطورية النمساوية، وبعد أن يتحرك القيصر العاصمة ويذهب إلى الجبهة ويترك أمور الدولة في يد زوجته يتمكن راسبوتين من السيطرة الكاملة على اتخاذ القرارات مما سيؤدي إلى وقوع الكثير من الكوارث، لتفقد روسيا في الحرب سبعة ملايين قتيل من الجنود وتلقى شر هزيمة.

هذه الجوانب الثلاثة إلى جانب تردد القيصر وضعف شخصيته وتشبثه بالسلطة المطلقة وخضوعه لزوجته بسبب حبه الشديد لها، وتشبثها هي بضرورة وجود راسبوتين إلى جوارها في القصر ومقاومة كل محاولة لإبعاده،

البدء الحقيقية لتفكك الدولة وسقوط الإمبراطورية.

إلا أن الأمر لم يتوقف عند حد المزج الجيد بين الوثائق التسجيلية والمادة التمثيلية الدرامية المصورة، فقد تم قطع مسار الأحداث، مع ظهور عدد من المؤرخين بين وقت وآخر، والتعليق على الأحداث والربط بينها وشرحها، وهو لم تكن له ضرورة خاصة أن الأحداث تشرح نفسها بنفسها من خلال الدراما التمثيلية، هذا الظهور المتكرر للمعلقين والخبراء والمؤرخين، يقطع الاندماج ويشتم الأذهان بدلاً من أن يصبح عامل جذب. ولو استبعد هؤلاء المؤرخون من المسلسل، لأصبح أكثر تماسكاً وجاذبية.

لكن ما حدث أن هذا الأسلوب «التعليمي» جعل المسلسل يبدو كسلسلة من برامج التاريخ التعليمية على غرار ما تنتجه وتعرضه قناة «التاريخ» history channel.

يبدأ المسلسل من عام 1894 مع تنصيب نيقولا الثاني قيصرًا على روسيا بعد وفاة والده المفاجئة وكان في السادسة والعشرين من عمره، وإن كان قد



المقارنات موجودة داخل المسلسل بين التمثيل والتاريخ



عائلة القيصر: قتلت جميع أفرادها بوحشية



أمير العمري
كاتب وناقد سينمائي مصري

بدأ مؤخرًا الاهتمام الكبير بالحديث من خلال مسلسل «الرومانوف» (8 حلقات منفصلة) الذي عرضته شبكة القياصرة «The Last Czars» الذي تعرضه حالياً شبكة نتفليكس، ويتكون من 6 حلقات متصلة، أخرج كل من أدريان ماكوييل وغاريث تانلي ثلاث حلقات منها. وقام بدور القيصر الممثل الإسكتلندي روبرت جاك، وفي دور القيصرة «الكسندرا» الممثلة الإنكليزية سوزانا هيربرت. وتوفرت للمسلسل ميزانية ضخمة وتم تصويره في أماكن كثيرة، تم تنسيقها لكي تحاكي المواقع الروسية الشهيرة مثل قصر الشتاء الذي صور في قصر رونالد في لاتفيا، إلى جانب قصور وكنائس أخرى في فيلنيوس عاصمة ليتوانيا.

مستوى الصورة في المسلسل بشكل عام متميز للغاية. أجواء الفترة مجسدة من خلال توزيع الضوء والظل، داخل القصور، كما تبرز قسوة الشتاء الروسي في المناظر الخارجية والمساحات المغطاة بالثلوج، ومحاكاة الفترة التاريخية منقطة للغاية مع تطابق الملابس والإكسسوارات وتصفيقات الشعر وطرن السيارات والقطارات، وغيرها.

يعيد المسلسل رواية فصول قصة صعود وسقوط القيصر نيقولا الثاني وكيف ساهمت القيصرة الكسندرا برعونتها وهوسها الديني وعلاقتها المتتيسة بالكاهن الفاسد راسبوتين في النهاية المأساوية لعائلة رومانوف، إلا أن المسلسل لا يكتفي بالجانب الدرامي في تجسيد الأحداث التي يرويها في تعاقبها الزمني. فلو كان قد اكتفى بهذا لكان من الممكن أن يصبح عملاً فنياً كبيراً.

يمزج صناع المسلسل بين التسجيلي والدرامي، من خلال استخدام الكثير من الصور الفوتوغرافية بما في ذلك الكثير من الصور الخاصة بعائلة القيصر، والشرائط السينمائية المصورة للفترة بأحداثها الصاخبة بما في ذلك التظاهرة الكبرى للفلاحين الفقراء الذين زحفوا يوم الأحد 22 يناير 1905 إلى ساحة القصر الملكي في سانت بطرسبورغ احتجاجاً على تدهور الأحوال وانتشار المجاعات في البلاد، وكانوا يرغبون في تقديم عريضة بمطالبهم للقيصر، إلا أنه رفض أن يقابلهم وأصدر الأمر بتفريقهم بالقوة فسقط الآلاف من القتلى في ذلك اليوم الذي عرف بـ«الأحد الدامي» وكان